الحوار الصامت مستمر خلف الباب الصغير ، وكلما اراد ان يحوله الى فعل ، الى حركة فتح ، لسعته على وجهه سياط الريح والمطر فيغلق الباب ، ويعاود الحوار وهو ينقل بصره بين الصندوق وزوجه المتكومة في الفراش البالي ، وبكاء الوليد كطعنات السكين في الظلام .

« ـ الى متى يستمر هطول المطر بهذه الغزارة فيحبسه في هذا الجحر الذي يدعونه غرفة ؟.. الا تكفي ثلاثة ايام ؟.. ثلاثة ايام بلياليها من المطر ، والريح ، والبرد ؟.. وسواء اكان راضيا بغرفته ام لا فهي مأواه الوحيد في قبو البناء المتهدم ، وللحقيقة ، او ربما بدافع التفاؤل ، فهو لا يزال يذكر اياما مريحة وهانئة قضاها فيها » .

كان يخرج منها في الصباح الباكر حاملا على كتفه الصندوق الخشبي يجوب الشوارع يمسح احذية المارة ويصبغها ليعود في المساء حاملا الى زوجه الطعام ورغم التعب الذي كان يحس به آخر النهار الا انه كان سعيدا ، او ليقل انه سرعان ما كان ينسى متاعبه وهو يجمع ما أحضره الى ما آتت به زوجه من البيوت التي كانت تخدم فيها فيتناولانه معا ويتمدد بجانبها ليستغرق في نوم هادىء يحلم بعمل ثابت ، وبيت مريح ، وصغار يملأونه ضحكا وفرحا .

وتحقق الحلم اخيرا ، ليس كله ، الجزء الاخير منه فقط ، فقد جاء الامل على هيئة طفل صغير وضعته زوجه منذ ايام ، فاستبشر بمقدمه خيرا وقد ازدادت الاحذية التي كان يصبغها ، بحيث ان انقطاع زوجه عن العمل لم يؤثر على مستوى المعيشة التي كان قد اعتاد عليها .

« ـ اما ان الخير قد ازداد فهذا واقع لا يجوز ان ينكره ، واذا كان المطر المنهمر يكاد يقضي على كل شيء فذاك موضوع آخر ، والحقيقة ان ايامه الماضية كانت ايام رخاء وترف ، ولا بد ان تعود به الحال الى سالف عهدها » .

« فقط لو يتوقف المطر قليلا ، ساعة او ساعتين ، زمنا يكفي لمسح حذاء واحد يشتري باجرته رغيفين من الخبز ، لا يريد اكثر ، سيعطي واحدا منهما لزوجه ، ويقسم الاخر نصفين ، يمنحها احدهما لقاء حصة الوليد ، ويترك النصف الاخر لنفسه .. اجل يكفيه نصف رغيف .

اما البرد فأمره بالغ السهولة ، سوف يندس في الفراش الى جانب زوجه فيتعانقان وهما يضمان بينهما صغيرهما ويتسرب الدفء اليهم جميعا » .

وتبدد الحلم كطائر مذعور ، فصحا وهو لا يزال واقفا على سلم القبو ينقل بصره بين زوجه وابنه والرطوبة الباردة تقضقض عظامه .

صمم على الخروج ، لقد دفع البارحة اخر قروش يملكها ، ولا بد ان يفعل اليوم شيئا ، فتح الباب بقوة ، صفعته دفقة من المطر والريح وهي تولول حانقة ، وطالعته السماء بوجه مكفهر غاضب كوجه صاحبة القبو اذا تأخر يوما عن دفع الاجرة . اغلقه بيأس وجلس فوق السلم واضعا رأسه بين كفيه .

« ـ لا ... يستحيل عليه ان يخرج .. لا فائدة .. فلا أحد يسير في الطرقات في مثل هذا اليوم .. لن يغامر والا ادركه المرض ، وعاوده السعال يضعف قواه ، ويقعده عن العمل ، فغدا سوف تشرق شمس ساطعة ، دافئة كالرغيف ، ويخرج الناس ، كل الناس يملأون ساحات المدينة وشوارعها ، فينطلق هو ليمسح احذيتهم ويصقلها كالمرآة عندها ستمتلىء جيوبه بالنقود الفضية ، والذهبية ، ليعود الى البيت مثقلا بالخبز ، والبرتقال ، واللحم ، اجل اللحم ايضا ، سوف يضعه في القدر .

ـ لن ينسى « الكاز » ـ ، ولن يترك زوجه الضعيفة تتحرك .. بيديه سوف يقدم لها صحن الطعام الشهي ، ويفيض القبو دفئا وحبورا »

وانتابته موجة من النشاط ، فنهض يبحث عن بقايا طعام ، اي شيء يؤكل ، كسرة من خبز ، قطعة بصل ، ادرك قليلا منه ، اعطاه لزوجه ، وتسلل الى الفراش يلوذ به ، وبزوجه الصامتة ، ووليدها وهو يمتص الهواء من بقايا ثدي أمه . وكأن الزوج وقد حقق آماله ، وانهى مهمته على خير ما يرام ، احس ببعض الراحة ، فاغفى ثم استيقظ الى ان ادركه النوم وهو يحلم بنهار مشرق .

في الصباح فتح عينيه ، وقفز من الفراش على ضوء نفاذ يتسلل من طاقة القبو الوحيدة ، ركض نحو الباب وفتحه عن آخره ، فارتد اليه ساطعا باهرا وكأن الشمس تشرق من كل مكان ، من السماء ، من الجدران .. والارض .. وقبل ان تنطلق صيحة الفرح من فمه توقفت وقد تجمدت في سقف حلقه ...!...

لقد غطى الثلج كل شيء واخذت ذراته تتلألأ تحت أشعة الشمس ضاحكة ساخرة . وارتد الى الداخل .

« ـ كيف حدث كل ذلك ؟... » .

سؤال فرض نفسه عليه بقوة ، وكأن سقوط الثلج في ليلة قارسة امر خارج عن حدود المعقول بسبب قسوة المفاجأة التي انقضت على رأسه

كضربة صاعقة .

« ـ اذا كان احد لا يصبغ حذاءه ايام المطر ، فهو قطعا لن يفكر بمسحه او تلميعه وارتفاع الثلج فوق الطرقات اكثر من شبر ... لقد تمنى نهارا مشرقا وها قد استجاب القدر لندائه .. لكن الثلج .. هذا الثلج اللعين كان خارج الامنية .. ربما كان مختبئا في مكان بعيد فلم يدركه دعاء زوجه وهو يخرج من بين شفتيها همهمة مستكنة وقنوعة » .

جلس على حافة السلم ، اراد ان يفكر غير ان كل شيء فيه كان مشلولا وعاجزا تماما عن ايجاد اي حل لمشكلته .

هجم على الصندوق ، حمله على كتفه ، وانطلق الى الشارع يرسم فوق الثلوج آثار اقدامه الوحيدة .

« ـ اين يذهب ؟.. اجل الى اين ؟ » فالحالة الجديدة تستدعي حكمة فائقة وطريقة مبتكرة للعمل ، واخذ يعمل ذهنه .

« ـ قطعا هو لن يتوقف في حيه ، او الاحياء المجاورة ، سوف يترك منطقة الفقراء وينتوجه مباشرة الى الطرف الغربي من المدينة حيث الابنية نظيفة بقدر ما هي شاهقة ، قد لا يجد احدا من سكانها في الشوارع ، الا انه سوف يطرق ابواب المنازل ليمسح احذية الاطفال وربما الكبار ايضا من يدري ؟.. » ورغم ان هذه الفكرة كانت من وحي زميل له في المهنة ، وهو غير متأكد من نجاحها ، الا انه قرر ان ينفذها بدقة تبشر بالنجاح .

على طول الطريق بين شوارع المدينة الكبيرة ، وابنيتها المتناسقة العالية ، وحتى في خلفيتها ، وراء ماسح الاحذية حيث الاحياء الفقيرة كان ثمة شيئان يتوزعانها بعدالة متناهية ، الشمس الساطعة ، وغطاء القطن الثلجي ، اما ما تبقى فقد كان الغبن فيه واضحا وفاسيا حتى على صعيد شخص ماسح الاحذية .

فبينما كانت اشعة الشمس الذهبية تحاول ان تبعث بعض الدفء في النصف العلوي من جسده كان البرد يشق طريقه من خلال الحذاء البالي الى النصف الاخر بسرعة اكبر ليتوقف مرغما في منتصف الجسم عند الحزام ، قاسما اياه الى قسمين منفصلين غارسا ألما ممضا في آخر فقرة ظهرية ، فاذا اضفنا الى ذلك ثقل الصندوق فوق كتف هزيلة دون اخرى ادركنا مدى التناقض الذي تعيشه كل خلية من كيانه . وعرفنا بسهولة سر المشية المرتجفة ، المترنحة فوق الثلج الغزير وهو يغيب قدمي ماسح الاحذية الواحدة تلو الاخرى .

اخيرا وصل ، كيف ؟.. ربما بقوة الاستمرار في السير ، او بحكم الجوع والالم الرهيب ينهش كل كيانه ، ام ربما لخوفه من ان يتوقف فتيبس اطرافه وتتجمد .. ما جدوى السؤال ، فحتى هو لا يدري . المهم انه وصل ، طالعته الابنية نظيفة وجميلة ، تحيط بها الاشجار من كل مكان وهي تتلألأ تحت نور الشمس كفكرة عذبة وغامضة يكاد لا يعيها الا في احلامه .

لم يشأ ان يضيع الوقت ، اختار بناء صادفه ، صعد السلم وطرق اول باب امامه ، خرجت منه سيدة بدينة .

ـ نعم .. ماذا تريد ...

فالتها بجفاء .

ـ أحذية ... أصبغها لكم ...

ـ ماذا .. ؟ ... من يخرج في هذا البرد .. لا يوجد لدينا أحذية ... وصفقت الباب في وجهه . دق بابا آخر ... لم ييأس ، صعد الى طابق ثان .. ثالث ورابع ، كانت الاجوبة نفسها تصفعه من كل بيت ... وصل الى الطابق الخامس والاخير .. هناك توقف قليلا يسترد انفاسه ، ويتحسس جسده الذي كان قد تثلج وانفصم عن وجوده تماما .

بجميع ما تبقت لديه من قوة ، وبكل حنينه الى زوجه وطفله وحبه للحياة رفع ذراعه وطرق الباب الوحيد ، فانفرج عن شاب انيق حليق ، وامتلأت خياشيمه بدفقة الهواء الدافىء والرائحة الزكية لابخرة الاطعمة وشذى عطور غريبة فانتعش قليلا وبكل ما سمع به في دنياه من رقة ولطف قال :

ـ حذاء ... أصبغه لك يا سيدي ...

ولما وجد ان ملامح الشاب قد تغيرت تابع كلامه بسرعة :

ـ سيدي .. سوف ألمع كل احذيتكم لقاء رغيف واحد فقط ..

وارتطم الباب في وجهه ، وكان صداه وهو ينغلق آخر ما رن بسمعه ، فسقط على الارض ، وتدحرج الصندوق من على كتفه وهو يهوي على السلم الى قاع البناية وقد تناثرت زجاجات الاصبغة تلطخ الجدران المرمرية النظيفة .

محمد رؤوف بشير

الموت السعيد

رواية جديدة لم تنشر من قبل تأليف

البير كامو

صدرت هذه الرواية منذ شهرين في باريس فاحتلت بسرعة راس قائمة انجح الكتب في هذه الفترة . ولم يسبق لهذه الرواية ان نشرت من قبل ، وقد استخرجتها زوجة البير كامو من اوراقه . وبالرغم من ان هناك شبها في الاسماء بين بطلي « الغريب » و« الموت السعيد » فهذه الاخيرة تختلف عن تلك كل الاختلاف ، وموضوعها هو البحث العنيد عن السعادة ، ولو كان ثمن ذلك ارتكاب جريمة. واحداث الرواية تتناول تجربة شاب يعاني مصاعب كثيرة على صعيد الفقر والمرض والحب والرحلات .

ترجمت الرواية عايدة مطرجي ادريس

صدر حديثا عن دار الآداب ـ بيروت

الثمن ٤٠٠ ق . ل .